

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٧ —

المدرسة اليوجينية

نشأت هذه المدرسة حوالي القرن الثاني قبل المسيح على أصح الأقوال وسارت في تعاليمها على منهج مدرسة « سامكهيا » ولهذا لم يكن لها في الابداع الفلسفي شيء يستحق الذكر ، وإنما يقدر مجهودها في السلوك العملي الذي بعثته من مرقدته بمد أن طفت عليه عوامل أخرى شديدة التأثير . ويتلخص هذا السلوك في الزهادة التامة ومحاولة إيقاظ الروح من سلطان البدن ومحاسبة الانسان نفسه على مقدار ما حصل عليه كل عضو على حدة من هذا التحرر من سيطرة المادة

وعندها أن الانسان مكون من قنوات كثيرة ، وأن العلة الوحيدة في أنه لا يصل إلى مبتناه من المثل الأعلى في الخلوص من الطبيعة هي أنه حين يتزهد لا ينجح في مراقبة جميع أعضائه ، وإنما هو يسيطر على بعضها فقط . فالبعض المتروك هو سبب الرسوب في هوى الطبيعة السحيقة والزروح تحت أنيارها الثقيلة والرسوب في أغلالها الضيقة

أما من استطاع أن يخلص كليته بتمامها من سلطان المادة ، فإنه يصير إلى نهاية المعرفة فينكشف له ما وراء الحجب ويحيط بأسرار الأقدار ويدرك كل ما تجرى به من أقلام الغيب وتحصل عنده القدرة الكاملة على قهر الزمان والمكان فينتظيان أمامه متى شاء وكيف شاء . ويستطيع أن يجتني عن الأعين وأن يتشكل بأية صورة يشاء وأن يشكل جميع العناصر كما يريد ، وأن يحيط بمكنونات أفكار غيره ، وأن يظهر في عدة أمكنة في نفس اللحظة ، فإذا وصل إلى هذه المرتبة فقد حصل على درجة النيوبية وتغافى في الكل الأول ، وهذه هي عليا درجات الكون أو غاية

اليوجينية ، ولعل أطف رد على تلاميذ هذه المدرسة هو ما قاله أحد قواد إحدى الفرق الحربية الإنجليزية في الهند حين سمع هذه اليزات التي يعزوها « اليوجيون » إلى مدرستهم ، فقال : ساخراً « إني أظن أن زهاد الهند إن استطاعوا — كما يزعمون — التغلب على الزمان والمكان والاختفاء عن الأعين واحترق حجب الأقدار ومعرفة خفايا الأسرار إلى آخر ما يدعون ، فإني على يقين من أنهم لا يستطيعون التغلب على رصاص بنادقنا وقذائف مدافعنا » غير أن نساك اليوجيين قد وجدوا لهذا الاعتراض رداً وهو أن حصول الشخص على الميزة شيء واستعمالها الفعلي الذي ينشأ عنه انقلاب نظام الكون شيء آخر .

ومهما يكن من الأمر ، فإن هذه المدرسة تعتبر مثلاً أعلى في التنسك والزهادة وإن كانت تابعة لغيرها في الأفكار والنظريات . ولما كانت تعاليمها التنسكية تتفق مع طبيعة الهند وما فطروا عليه من روحانية وميل شديد إلى العزلة ، وانعطاف قوى نحو التأمل في أسرار الكون وخفايا الوجود ، فقد راحت مبادئها رواجاً عظيماً ، واعتنتها خلق كثير ، ولا تزال إلى اليوم حية آهلة بالمعتنقين والمريدين .

الفيدياتا

كان هذا المذهب في أول نشأته محصوراً في شرح « الفيديا » وتأويلها وتخريج آياتها التمشابهة ، ولكنه بفضل تلك البحوث المستفيضة التي كان زعماءه يخرجونها حول تلك النصوص العتيقة المفرقة في التعقد أخذ يرتقى شيئاً فشيئاً ويخطو إلى النظر العقلي خطوات واسعة حتى تحول إلى فلسفة نظرية عويصة في عهد « سانكرا » ذلك الفيلسوف العظيم الذي يؤكد الباحثون المعاصرون أنه لا يقل عمقاً في التفكير ودقة في النظر وغوصاً في بحر الفلسفة المنطقية عن « كانت » و « هيجل » وهما أرق فيلسوفين في العصر الحديث .

يرى هذا الفيلسوف أن العالم صدر عن الله بطريق الانبثاق ، وهو يعود إليه بطريق الجذب ، وهذه فكرة قديمة سبق بها الأولون هذا الفيلسوف زمن بعيد ، ولكنها أخذت تتطور بين مباحث هذه المدرسة حتى وصلت إلى حلولة من النوع الراقى ، فقررت أن هذا العالم الظاهر ليس هو حقيقة الإله ، وإنما هو

فأما الالهيات فأحسب أن مامر بك فيها كان للتدليل على ما نقول . وأما الرياضة بجميع أقسامها فلم تصل في أي بلد آخر — إذا استثنينا مصر — إلى مثل ما وصلت إليه الهند من رفعة وارتقاء . ويكنى أن نصرح بأن الهندودهم أساتذة « فيثاغورس » أكبر رياضي اليونان على الاطلاق ، وهم أساتذة العرب في الحساب والهندسة والفاك ، بل إن أرقام الحساب المستعملة الآن في العربية هي هندية الأصل .

أما الطبيعة فحسبنا لنبرهن على سابقيتهم فيها أن نعلن أنهم قد وصلوا إلى نظرية « الدر » أو الجوهر الفرد قبل « ديموقريطس » و « لوسيب » أول قائلين بهذا في بلاد اليونان زمن بعيد ، وأنهم قاموا في الكيمياء بتجارب جبارة كافت كثيرين منهم الحياة نفسها كما روى التاريخ في عدة نواح من حديثه عن تلك البلاد . وأما المنطق فهو قديم جداً في المدارس الهندية حتى ليرجمه بعض المؤرخين إلى القرن الثاني عشر . ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يجزمون بأن المنطق الهندي هو أساس منطق ارسطو ، ولكن البعض الآخر لا يصعد بالمنطق الهندي على سلم الماضي أكثر من عصر المدرسة اليوجية أي بعد عصر ارسطو ، ولكن هذا الرأي الأخير عندي غير صحيح ، إذ أن المنطق قد وجد بلا شك في مدرسة « سامكهيا » وهي قبل ارسطو زمن بعيد .

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بأن الفلسفة بأكمل معانيها قد وجدت في بلاد الهند ، وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتهما التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة ، وبالتالي نصرح أن الهند كانت ولا تزال لبنة هامة ، بل حجراً أساسياً في بناء الفكر البشري الراقى ماقى ذلك شك ولا ارتياب .

محمد محمود

« ينبع »

كان أدنى محدث ، ولكن كل جزئية منه تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الالهية ، ولهذا يجب أن يفهم الانسان أن شخصه الخارجى الذى يشبه غيره في شيء ويختلف عنه في شيء ، والذى يولد ويموت ويأكل ويشرب ليس في الحقيقة شيئاً مذكوراً وإنما الذى يجب أن ينظر إليه في شخصه هو الحقيقة الالهية ، لهذا يصح أن يقال له : أنت الانسان والاله ، أنت الخالق والمخلوق ، والمعبود والمعبود ، أنت الشخص و « اللاشخص » . وإذا صرفنا النظر عن الناحية الدنيا فيه ، قلنا له : أنت الواحد الأوحد والكل الأعلى والأول والآخر .

وما كانت هذه المدرسة تؤسس تعاليمها على أن عالم الظاهر لا يساوي شيئاً كما أسلفنا ، فقد احتقرت المعرفة الظاهرية واستخفت بالتجربة والشاهدات إلى أبعد حدود الاستخفاف وأعلنت أن المعرفة الوحيدة الجديرة بالاجلال هي معرفة الحق لأعلى أو هي ما كان موضوعها الحقيقة الالهية ، وأنها لا تجيء إلا عن طريق الالهام البصرى الذى يتوصل إليه بالتنسك والرياضة بالخلوص من المادة . وأخيراً أعلن « سانكرا » أنه لا يصل لى « براهمان » إلا من تحققت لديه المعرفة الكاملة وتخلص من جميع علائق المادة ، إذ هو في هذه الحالة وحدها يصل إلى درجة لسيوبة الكاملة أو التفانى في الله أو السعادة الأبدية .

ير أنه لم يكذب يعلن هذه الآراء حتى هب المتصبون من البراهمة رمونه بأنه بوذى يتقمص جسم براهمي ، أو زنديق يرتدى رب متدين ، لأن النتيجة الأخيرة التي انتهى إليها مذهبه هي نفس زبدة تعاليم البوذية ، ثم جعلوا يحاربون مذهبه بكل ما أوتوا من قوة وسلطان حتى قضوا عليه ؛ وكان ذلك موافقاً بالمصادفة وأن الفتح الإسلامى ، فاجتمع هذان العالمان وتكاتفوا على قطع هذه السلسلة الفكرية من تاريخ الهند ، وعلى بدء تاريخ جديد يبرز باحثين أثر الاسلام في تلك الأصقاع على صورته الحقيقة .

خاتمة

الطبيعة — الرياضة — المنطق

لا يريد أن نقادر الحديث عن تلك البلاد إلا بعد أن نقرر في براحة أن الفلسفة بجميع أقسامها : الالهية والرياضية والطبيعية قد أزهرت فيها إزهاراً فائقاً ، وأن المقدمة الضرورية للفلسفة هي المنطق قد بلنت في مدارسها الحد الكافى للتفلسف الراقى .

أطلب مؤلفات
الاستاذ المشرف
وكتابه
الاسلام الصحيح

من مكتبة الرشد شارع الفلكى (البلد)
من المكتبات العربية المشرفة